

مجلة علم النفس

مجلة ٦

أكتوبر ١٩٥٠ - يناير ١٩٥١

عدد ٢

أدولف ماير

١٨٦٦ - ١٩٥٠

بقلم

الدكتور صبري صبري

مدير العيادة العصبية النفسية بوزارة المعارف

في السابع عشر من مارس عام ١٩٥٠ فقد الطب العقلي بموت أدولف ماير علماً من أشهر أعلامه ورائداً سيظل اسمه أبداً في الصف الأول من العلماء الذين وقفوا حياتهم على خير الإنسان ورفاهيته عن طريق الجهد المتصل في دراسته وفهمه .

وقد يكون عسيراً علينا أن نقوم العمل الضخم الذي أتمه أدولف ماير لو لم نرجع بالذاكرة إلى ما كان الطب العقلي عليه حين بدأ ماير حياته العملية . فإن كثيراً مما دعا إليه وكافح من أجله قد أصبح اليوم من البدييات المسلم بها . ولد ماير في ١٣ سبتمبر عام ١٨٦٦ في كنيسة قرية نيدر فتنجن السويسرية بالقرب من زوريخ ، وكان أبوه قساً إنجيلياً . وقد أحس الفتى أدولف برغبة قوية في دراسة الطب ، فحقق هذه الرغبة على أعلام الأطباء يومئذ .

وبعد أن حصل على إجازته الطبية في عام ١٨٩٢ رغب في أن يشتغل بالطب العقلي ولكنه رغب عن أن يكون ذلك بسويسرا فسافر إلى أمريكا حيث أتيحت له فرصة الدراسة بجامعة شيكاغو إلى جانب العمل المتواضع بعيادته الخاصة . ثم ساحت له الفرصة بعد ذلك بقليل للتحق بالمعمل الباثولوجي بالمستشفى الحكومي للأمراض العقلية بكانكاكي بولاية إلينويس . ثم انتقل إلى المعمل الباثولوجي بمستشفى ورشستر للأمراض العقلية بولاية ماسوشوسيتس وظل به من

عام ١٨٩٥ إلى عام ١٩٠٢ حين جذبه مدينة نيويورك للعمل بها بمفكرة تنسيق البحوث الباثولوجية في مستشفياتها الحكومية الثلاثة عشر . وفي نفس الوقت عين مديراً لمعهد نيويورك للطب العقل أستاذاً للطب العقل بجامعة كورنل من عام ١٩٠٤ . وفي عام ١٩١٠ افتتحت جامعة جونز هوبكنز عيادة هنرى فيبس العقلية بها . وجعلت ماير على رأسها أستاذاً للطب العقل حيث ظل ما يزيد عن الثلاثين عاماً . أى حتى اعتزل العمل في عام ١٩٤١ . ثم عاش بعد ذلك عيشة هادئة مع زوجته في بلتيور حتى أودته الوفاة .

• • •

عند ما بدأ أدولف ماير حياته العملية بأمريكا في عام ١٨٩٢ كانت زعامة الطب العقل معقودة على كرييلين . وكان اسمه هو ألمع الأسماء في هذا الميدان بأرجاء العالم قاطبة . كان كرييلين عن طريق الوصف الكلينيكي المستفيض قد قلب كثيراً من الآراء السائدة في عالم الطب العقل يومئذ رأساً على عقب . كان صاحب منهج جديد في بحث الحالات العقلية هو المنهج الوصفي . وعن طريق هذا المنهج وضع تصنيفاً جديداً للأمراض والأضطرابات العقلية فضلاً عما فصل قاطعاً وجعل لكل منها اسماً يشير إليه ويدل عليه ويقطع ما بين غيره من الأمراض . في الوقت الذي كان كرييلين يقوم فيه بهذا الجهد العظمي في انقارة الأوربية كان حال المستشفيات العقلية في أوروبا وأمريكا اتحد ما يكن عن مسيرة التقدم الذي كان يسير بخطى حثيثة في العالم الطبي نتيجة النهضة التي بعثها اكتشافات فيرشو في علم الباثولوجيا . كانت المستشفيات عقلية يومئذ لا تدر كونهما أما كن لمجزر المرضى ، مقطوعة الصلة . أطباءها ومرضاها على حد سواء وبالجميع وبالعالم انشبي معاً . ولهذا لم يكن غريباً بعد عامين من وصول ماير إلى أمريكا . أى في عام ١٨٩٤ . أن يقف وزير ميشل الأشخاص المشهور في طب الأعصاب ، وهو يومئذ من ألمع الأسماء في الطب الأمريكي . يخاطب الجمعية الطبية النفسية الأمريكية بمناسبة الاحتفال بعيدها الخمسين فيحمل حملة شعواء على رجال المستشفيات العقلية . موجهاً إليهم مر النقد وناعياً عليهم عزلتهم وتخلقهم عن مسيرة التقدم الطبي فيقول « كنا نتحدث عن المستشفيات العقلية فيما مضى باحترام ، أما اليوم فلا . أننا إخصائيو الطب العصبي نظن أنكم تخلقتم عنا ، وهذا الرأي قد امتد إلى خارج صفوفنا . ووزره إلى حد ما على الأقل واقع عليكم ... »



1. The first part of the paper is devoted to a general
- discussion of the various methods of determining the
- rate of reaction. It is shown that the rate of reaction
- can be determined by measuring the change in concentration
- of the reactants or products, or by measuring the change in
- the rate of reaction. The rate of reaction can also be
- determined by measuring the change in the rate of reaction
- with time. The rate of reaction can also be determined
- by measuring the change in the rate of reaction with
- concentration.

أين تقاربكم العلمية الدقيقة . . . إنكم تعيشون فى عزلة . فلا نقد ولا سؤال ولا شيء فى هذه الصراعات والمنافسات الأمانة التى رفعتنا (نحن إخصائى الطب العصبى) إلى أعلى درجات الكفاية .

أما فى العمل الخاص فلم تكن الحال أحيرا من ذلك . كان الغالبية من الإخصائين العقلين يعيشون كما ذكرنا فى عزلة داخل مستشفياتهم . وكانت حالات المرض النفسى تعرض أكثر ما تعرض لإخصائى الطب العصبى الذين لا تؤهلهم دراسهم ولا مراهم لفهمها وعلاجها على أى وجه نافع . وكان علم التحليل النفسى يومئذ لا يزال فى مطالعه الأولى ، وقد نشأ فى كنف الطب العصبى إذ بدأ فرويد نفسه حياته العملية مشغلا بطب الأعصاب وقصد إلى باريس ليتلمذ على شاركو أشهر أطباء الأعصاب فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، واستمع إليه يخاضر فى الأمراض العصبية ومن بينها المستربا كما كان العالم الطبى يعتقد فى ذلك الوقت ، فساعد ذلك كله على اختلاط الأوضاع على الناس فى أول الأمر ، ولكن الطب العقل ، بعد أن خرج من عزلته بفضل ماير وأصحابه سرعان ما اتصل بالتحليل مرحبا ، وأقبل إخصائيوه عليه يهلون منه ويترودون من تعاليمه بما يفتح أمامهم آفاقاً جديدة فى فهم الأمراض النفسية والعقلية وعلاجها . وقد كان لهذا التعاون بين الطب العقل والتحليل النفسى ، وهو تعاون محتوم تدعو إليه وتدعمه طبيعه العمليات المرضيه نفسها ، أثره الفعال . فخرجت الأمراض النفسية والعقلية من دائرة الطب العصبى ، وأصبح مفهومها أن الاضطراب النفسى أو العقلى ، فى أية صورة يبدو ، لا علاقة له «بالأعصاب» الضعيفة أو المتعبة . وأن علاج الأمراض النفسية والعقلية لا يدخل من قريب أو بعيد فى نطاق المختصين بطب الأعصاب ، أو ما يطلق عليه فى الاستعمال الدارج الأمراض العصبية^(١).

(١) نرى من الخير ونحن بضدد الحديث عن الطب العصبى والى العقل أن نخلو معنى العلمى نقصود من هذين الصطلحين ، فإنه وجده هو المعنى الصحيح . فأطب العصبى (Neurology) هو ذلك الفرع من الطب الذى يعنى بدراسة الأمراض العضوية للجهاز العصبى فى أى جزء من أجزائه ، من أنخ إلى الأعصاب المحيطية . والمرض العصبى يستزم بالتالى أن يكون نتيجة إصابة عضوية ذلك الجهاز (تنتج عادة لإلأمن عمليات التهابة أو إخلالية أو إصابات بالجهاز الدموى أو أورام) ، وتظهر أعراضها بصفة خاصة فى صورة اضطراب حسى أو حركى يختلف فى مظهره حسب نوع الإصابة وموقعها من الجهاز العصبى . أما الطب العقلى (Psychiatry) وهو أيضا الطب النفسى (Psychological) =

تري لو قدر لوير ميتشل أن يعود اليوم ليرى هذه التفقرات الضخمة التي حققها الطب العقلي في مثل هذا الفترة القصيرة نسبياً في تاريخ العلم ماذا عساه يقول ؟ ثم بماذا عساه يشعر وهو يرى الطب العصبي ، فرع تخصصه الذي طالما زها به واعتز ، وقد تقلص وانكمش وضاق نطاقه حتى لم يكذب يبق منه شيء بعد أن اقتسم أغلب ميراثه أخصائيو الطب العقلي من ناحية وجراحو الأعصاب من ناحية أخرى ؟

لو كان لرجل واحد فضل في أن جرت الأمور مجراها السوى وأن تبوأ الطب العقلي هذه المكانة المرموقة بين فروع التخصص الطبي جميعاً ما كان هذا الرجل سوى أدولف ماير .

في أواخر القرن التاسع عشر ، أي في السنوات الأولى من حياة ماير العملية . كان اتجاه الطب العقلي منصرفاً إلى تحديد العلاقة بين المرض العقلي وبعض العلوم الطبية الأساسية كالباثولوجيا والفسيولوجيا والكيمياء الحيوية . وقد كان هذا الاتجاه في ذاته تحولاً ذا بال في دراسة المرض العقلي . . . تحولاً من دراسة

(= Medicine) فإنه ذلك الفرع من الطب الذي يعني بدراسة العوامل النفسية أو الانفعالية فيما يصيب الإنسان من مرض ، أي كان مظهره أو كانت أعراضه ، فهو بذلك يجمع بين الحالات التي تظهر أعراضها في المجال النفسي المحض كالخوف والوساوس والحالات التي تظهر أعراضها في المجال الجسدي (كالربو وقرصة المعدة والارتكاز وارتفاع ضغط الدم الأولى إلخ) بعد أن وضع تماماً أن العامل النفسي أو الانفعالي يلعب دوراً هاماً في عليّة هذه الحالات وغيرها .

هذا هو الوضع الآن ، ومنذ سنوات طويلة ، في أمريكا والبلاد التي نضج فيها الوعي الصحي العام إلى درجة تمتنع فيها هذا اللبس اللغوي ، ولا يؤدي ، إذا وقع ، إلى مثل النتائج الخسيرة التي نراها كل يوم من الجمع ، تحت كلمة الأمراض « العصبية » بين الأمراض العصبية الحقيقية ، أي العضوية ، وبين الأمراض النفسية والعقلية . وهذا الخلط موجود ، بل ذات مع الأسف بمصر ، يقع فيه جمهور الناس والأطباء على حد سواء . ويدفع المرضى ثمة غالباً من صحة نفوسهم ومن كفايتهم وسعادتهم ، بل ومن حياتهم أيضاً في كثير من الأحيان . فما أكثر الضحايا الذين وقعوا صرعى الخطأ ، التعمد أو عن سهو ، لهذه الكلمة « أعصاب » . ما أكثر الذين يعانون الخلق والخوف والوساوس ، الذين يحتاجون الاستقرار ويتكبدون سبل النجاح في المدرسة أو العمل أو الزواج ، الذين يدفع بهم الانقياس إلى محاولة التخلص من حياة لا يرون فيها إلا التدنوب والهموم ، أو يدفع بهم الهياج إلى عدوان لا تتمد عقابه على الغير أو الذات . ما أكثر هؤلاء وغيرهم من مرضى النفس والعقل الذين راحوا مضطربين يردون العلاج لعلهم من غير موارده ، فاباءوا بعد المحاولات المتكررة الفاشلة لـ « أدوية » أعصابهم ، فوق ما فقدوا من وقت وجهد ومال ، بغير المرض والحشرات .

الأنسجة بعد الوفاة إلى دراستها أثناء الحياة . في هذه الأثناء ظهر أدولف ماير وهو لا يزال بعد في مستهل حياته العلمية . فلم ير الوقوف عند دراسة الأنسجة الحية وحسب . بل ألح في دراسة المريض الحى الذى يتحرك ويعمل في بيئته . وكانت هذه أولى الخطوات فيما وصل الطب العقلى إليه فيما بعد . تحت زعامة ماير . من تقدم في فهم الإنسان .

فلما انتهى ماير من العمل بالمعمل الباثولوجى ثم تولى إدارة معهد نيويورك للطب العقلى في عام ١٩٠٢ وشغل كرسي الطب العقلى بجامعة كورنل في عام ١٩٠٤ سنحت الفرصة لإخراج اهتمامه الواسع بالبشر من نطاق المعمل الضيق إلى آفاق الحياة الواسعة . إلى تاريخ المرضى وبيئاتهم الاجتماعية وحاجاتهم البشرية العامة . منذ ذلك الحين أخذ ماير يؤكد ضرورة دراسة المرض العقلى تحت هذه الأضواء ، وفهمه كرجع المريض لمواقف الحياة التى تعرض له . ومن ثم إلحاحه بضرورة الاهتمام بدراسة أطوار حياة المريض جميعاً وكل اتصالاته البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية . ولهذا السبب لم يكن ماير يكتفى بالاقصر على معرفة حالة المريض الراهنة . بل كان يحتم الوصول إلى كل ما يستطيع عن تاريخه الأسرى وبيئته الاجتماعية وحياته في مختلف أطواره (١) . وكان هذا الاتجاه يتطلب تعاون فريق من الباحثين يتضافرون معاً للحصول على أكبر قدر ممكن من البيانات عن المريض لكي يرجعوا إليها بعد عند محاولة إعادة تكيفه مع المجتمع ، ومن ثم فقد كان هذا الاتجاه هو نواة البحث الاجتماعى النفسى الذى يعد الآن جانباً لا يمكن الغناء عنه في العلاج الطبى العقلى . ورويدا أخذت آراء ماير تتبلور . كما زاد أثرها في توجيه الطب العقلى بأمريكا أولاً ثم خارجها بعد ذلك . وقد يكون مما ساعد على ذلك أن الاتجاه نحو فهم أثر العوامل النفسية في المرض العقلى قد بدأ يتشرب منذ مستهل القرن العشرين . فقال شارلز دانا . وهو يومئذ من مشاهير الأطباء العقلين : إن

(١) نود أن نشير هنا ، غير تعقيب ، إلى أنه بينما يدعو رجل مثل ماير إلى ضرورة بذل قصارى ما يمكن من وقت وجهد في دراسة حياة المريض من وجوهها المختلفة قبل جواز تقرير رأى في عيادته حالته وعلاجها ، لا تستغرق « دراسة » بعض هؤلاء المرضى بمصر ، وكثير من حالات المرضى النفسى أو العقل المستوراء كلمة « المرض العصى » إلا الدقائق التى يقوم فيها مريض آخر بخلع ملابسه استعداداً للفحص على هذا النمط القريد في دلالاته على مدى الاحترام للمريض ومدى الفهم لحياته الأمانة العلمية .

الطب العقلي ليس في الواقع إلا علم النفس المرضى « ، ثم أعقبه أو جست هوخ .
 تناولها جمعية الطب في بنينبورك . فقال إن العوامل النفسية تشترك إلى حد
 حد كبير في عملية الحركات البارانونية . وأضاف أنه تأثر في هذا الرأي بفرويد
 وبلوير ويونج . تأثره أدولف ماير . أما ماير نفسه فبدأ منذ عام ١٩٠٨
 بنشر سلسلة من المقالات . كان لها أثر هام النفاذ المدوي . في « المجلة الأمريكية
 للجنون » (كما كانت تسمى يومئذ . هي الآن « المجلة الأمريكية للطب العقلي »)
 وقد حاول في إحدى هذه المقالات وعنوانها « دور العوامل العقلية في الطب العقلي »
 أن يشرح المشابهة بين هذه العوامل وبين نظرية الناعة في علم الأمراض
 (الباثولوجيا) حيث يكون لمعرفتنا قدرة المريض على مقاومة العدوى . يختلف
 درجاتها في العنف . أهمية أشد من مجرد الاختصار على معرفة التغييرات التي
 تحدث بالأنسجة . وفي مقال آخر عنوانه « دراسة لتحليل التكوين العصبي »
 قرر ماير في نقته . وكأنه يتحدث عن أمر مفر من منه . « أن عدداً كبيراً
 ممن يصيرون إلى المرض العقلي فيما بعد يمكن توقع . المصير السيئ لهم » .
 وقد عقب كيرني على هذا الرأي . الجديديومئذ . « إن الأستاذ ماير
 هو أول من وجه النظر إلى إمكان اكتشاف دلائل النزعة إلى التكيف السيئ
 قبل حدوث المرض العقلي بمدة طويلة . وفي حالات كثيرة في مرحلة مبكرة
 جداً من الحياة » . ونشر ماير مقالا آخر عنوانه « آراء أساسية عن الليل المبكر »^(١)
 التي به كثيراً من الضوء على الشخصية الفريدة لكثيرين من مرضى النقصان
 وأدل فيه بنظرية الخاصة . بأثر الماديات العقلية السيئة أو الضارة في نشوء هذا
 الطراز من المرض العقلي . وعقب ما كني كامبل على هذا المقال بقوله « إنه من
 المعالم في تاريخ الطب العقلي » . وأنه « أثار تعقياً قليلاً نسبياً في ذلك
 الوقت . ولكن الآراء التي احتواها تخللت الطب العقلي الحديث كله . وبخاصة
 فكرة الشخصية وراء المرض العقلي (الذهان) والنظر إلى الذهان (وأعراضه)
 من خلال سلوك المريض في مواقف حياته الحقيقية » . ثم بصفة أخص « تأكيد
 العطاء الأصلي للمريض والسمات الخاصة لشخصيته والأثر المعدل للبيئة وتكون عاداته
 ومشقات المواقف الواقعية » . وأن تفديوتا لأثر آراء ماير ليتضاعف إذا ذكرنا أنه كان
 يخاض بها آراء كاريلين . وهو يومئذ صاحب الاسم المدوي في عالم الطب العقلي .

(١) هو ما يعرف الآن بالنقصان أو الشيزوفينيا .

كان كريبلين قبل ذلك بحوالى خمسة عشر عاماً قد انتهى إلى تصنيف للأمراض العقلية يستند إلى فكرة المرض المفرد . وأعلن أن هناك مرضاً عقلياً محدد اسم « الخبل المبكر » يصير بصحته حتماً إلى الخبل التام . وكان الرأي في عالم الطب العقلى قد استقر إلى ما كان كريبلين ينادى به (فجاء بلوير أولاً واعترض على اسم « الخبل المبكر » مبتدعاً اسم « الفصام » الذى يعنى به طائفة من الأرجاع الذهانية لا مجرد مرض معين . ثم أنكر بلوير أن الفصام مرض غير قابل للشفاء ، وأشار إلى أن التعامل الأساسى فى الفصام ليس انعدام الوجدان كما كان يقال بل هو تفكك الارتباطات ، وأن تفكير المقصوم تفكير اجترارى . . . هو نموذج من التفكير الخيالى الذى تقرره انفعالات منبعثة من الداخل لا حقائق العالم الخارجى . . وبذا عارض بلوير كريبلين وقرب من نظرية الأرجاع الرجسية لفرويد .

فلما جاء ماير وأعلن نظريته فى الفصام : وحطم فكرة المرض المفرد وقدم تصنيفه للأمراض العقلية على أساس الأرجاع النفسية المرضية للأمراض المفردة ، فقدت نظرية كريبلين كل قيمتها العلمية . وانزوت لتأخذ مكانها فى تاريخ الطب العقلى .

ثم وصل ماير إلى قمة مجده العلمى وبلغ أثره فى تقدم الطب العقلى غايته حين أنشأت كلية الطب بجامعة جونز هوبكنز ببالتمور فى عام ١٩١٠ عيادتها العقلية ذات الشهرة المدوية : وهى العيادة المعروفة باسم عيادة هنرى فينس العقلية وأسندت رئاستها إلى ماير مع شغله كبرى الطب العقلى بالجامعة . لقد بلغ من شهرة هذه العيادة أن كانت مقصد الأطباء من جميع أنحاء العالم . بل أن أطباء مستشفى مودزلى بلندن (وهو المستشفى التعليمى للطب العقلى بإنجلترا) قصدوا إليها ليستكملوا مراتهم ، ومنهم أعلام الطب العقلى بإنجلترا .

فى هذه العيادة تابع ماير تعهد أرائه وإيماءها بالخبرة المتكررة والتجربة المتصلة . فظل على عنايته يجمع كل ما يمكن الوصول إليه من بيانات عن المريض لتكون الأساس فى توجيه حالته . وقد يكون من الإنصاف أن نذكر أن بينل . وهو طبيب فرنسى من معاصرى الثورة الفرنسية : كان أول من غنى بدراسة مرضاه دراسة منتظمة دقيقة وأول من دون ملاحظاته بصدد ما رأى فيهم . أو سمع منهم أثناء تحدثه إليهم فى مروزه اليومى ، وبذا يكون فى الواقع

أول من أدخل فن أخذ التاريخ المرضى في الحالات العقلية وتدوين الملاحظات عنها . مما أصبح فيما بعد أساساً للبحث العلمي في هذا الميدان . ولكن هذا الاتجاه أهمل بعد بينل ، حتى أحياه ماير ، وبعض أصحابه مثل هوخ وكيرني . من جديد في المعهد العقلي بنيويورك الذي أنشئ لغرض البحث العلمي في ميدان الطب العقلي على أساس البيانات الكلينية المستمدة من مرضى المستشفيات الحكومية . ثم في عيادة فيس بعد ذلك . وقد كانت هذه البيانات المسهبة جداً هي مادة البحث في عيادة فيس : وإليها اطمأن ماير في دراسته للمرضى تلك الدراسة التي تبلورت في فكرة الأرجاع المرضية لا الأمراض المتفردة . فإن كل حالة في رأي ماير هي « نموذج رجوع » خاص تنطوي فيه مرونة المريض وتلقائته وفرديته . ولا سبيل إلى فهم المريض فهما صحيحاً إلا إذا درست أرجاع شخصيته من نواحيها جميعاً . لحاجاته وعلاقاته بالبيئة الاجتماعية .

وفي عيادة فيس أيضاً بدأ ماير ، ثم أنمي ، توجيهه الفلسفي للطب العقلي المعروف باسم « السيكوبولوجيا » . كان ماير في عام ١٩١٤ قد بدأ بالاشتراك مع الأستاذين جون واطسن ونات دنلاب في إلقاء محاضرات في علم النفس على طلبة الطب بجامعة جونز هوبكنز ، ولكن ماير سرعان ما استشعر الحية من سلوكية واطسن وتجريبية دنلاب فانفرد بالمحاضرات منذ عام ١٩١٥ . لقد كان ماير يصر على ضرورة الاعتراف العلمي بالإنسان كالمسمة المحورية في الطب العقلي ، بل في الطب العام أيضاً ، وكانت له قاعدة تلخص في أن ما ينبغي أن تعنى به هو نشاط الكائن أو الفرد كله كوحدة لانشاط أعضاء منفصلة متفردة . فالسيكوبولوجيا في نظر ماير كانت هي الفصل المفقود في كل من الفسيولوجيا والباتولوجيا . . . الفصل الذي يشمل وظائف الفرد كله ، لا وظائف أعضائه كلاً منها على حدة .

وقد كان لهذا التوجيه المحكم في النظر إلى المريض أثره في العلاج أيضاً . فإن ماير لم يكن يتعلق بنظرية خاصة كما لم يكن يقف عند طريقه علاجية بعينها ، بل لعل خير ما يميز طريقته هو شمولها . كان ماير يدمج كل ما يمكن الحصول عليه من بيانات في الصورة التي يبدو بها الرجوع العقلي المرضى . فكان ينظر إلى الصورة كلها كوحدة أولاً ، ثم يراجع بعد ذلك تركيب حياة المريض في مختلف جوانبها : العضوية والاجتماعية والحضارية العامة والنفسية المحضة . وفي

الوقت الذى كان ماير يؤكد فيه ضرورة العلاج الجسمى كجزء غير منفصل عن أى علاج نفسى قد تدعو الحاجة إليه لم ينس الغذاء المناسب والعلاج بالعمل والنشاط الترويحى إذ يتناول المشكلات الاجتماعية والنفسية لمرضاه ويساعدهم فى حلها . كما أنه لم يغفل أهمية تتبع الحالات والعناية بالمرضى بعد خروجهم من المستشفى . لقد كان ماير يؤكد أن نجاح العلاج السيكوبولوجى متوقف على أن يشمل علاج المريض كل وجوه نشاطه بوصفه كائناً اجتماعياً وبيولوجياً مع بذل غاية ما يستطيع من الوسائط العلاجية كلها ظهرت مشكلة تدعو إلى الحل . فليس وجه من وجوه الكائن بأقل ولا بأكثر أهمية من غيره . وليس من الغلو فى شئ القول بأن هذا التوجيه كان من أقوى العوامل التى دفعت بالعلاج الطبى العقلى إلى الأمام ووصلت به إلى هذا المستوى الذى نراه اليوم .

ولا شك فى أن هذه النظرة السيكوبولوجية إلى الإنسان هى التى مهدت للاتجاه الطبى المعروف الآن باسم « الطب الجسمى النفسى » . فقد امتد النظر إلى الإنسان كوحدة من الطب العقلى إلى الطب العام . وامتد العلاج تبعاً لذلك من المرض إلى المريض . وقد كان ماير يعترض على اسم « الطب الجسمى النفسى » اعتراضاً شديداً خشيه أن ينطوى هذا اللفظ على معنى ثنائية الجسم والنفس . وهو المعنى الذى جهد كثيراً فى إنكاره ومحاربته حتى لا يتطرق إلى أحد الظن بأن وظائف الكائن الفرد يمكن أن تنفصل أو تنشط بعضها بمعزل عن بعضها الآخر . لقد كان ماير يدين بالمذهب الواحدى فى النظر إلى الإنسان ، لأنه فى يقينه المذهب الوحيد الذى يقربنا من فهمه ويساعدنا على حل مشكلاته .

ومما يذكر لماير بالتقدير أنه كان من مؤسسى الجمعية الأمريكية للتحليل النفسى على الرغم من أنه لم يقبل نظريات التحليل النفسى وطريقته قبولاً تاماً . ولكنه كان مثالا يحتذى للعالم الذى يدرس بعناية الآراء التى يعارضها . ويستطيع أن يحكم عليها حكماً موضوعياً ينطوى على التقويم السديد لما يرى فيها من وجوه الصواب ، ولهذا لم يتردد قط فى تقرير أهمية الاتجاه الديناميكى لمدرسة التحليل النفسى فى فهم الاضطرابات النفسية والعقلية وعلاجها .

وإلى جانب هذا كله كان ماير شخصية قوية الأثر فى كل حركة علمية أو اجتماعية ظهرت فى نطاق الطب العقلى ، وقد بدأ نشاطه فى هذا السبيل منذ

بدأ حياته بأمريكا . ففي العام التالى لوصوله كون رابطة من الأطباء فى الولايات الوسطى عقدت اجتماعاتها عددا من البنين . كان هدفها مناقشة المشكلات العلمية ، وهو اتجاه جديد فى ميدان الطب العقلى يومئذ . وقد ظل ماير حينما كان يعمل ينظم أطباء مستشفى فى حلقات للمناقشة ، وبعد ذلك بدأ يكون مؤتمرات داخل المستشفيات كانت هى النواة لجمعية الطب العقلى المنتشرة فى جميع أنحاء أمريكا الآن .

ولما بدأ كليفورد بيرز حركة الصحة العقلية بأمريكا وتكونت اللجنة الأهلية للصحة العقلية فى فبراير من عام ١٩٠٩ كان ماير من أبرز أعضائها بل كان روحها الموجهة . وقد عمل فى سبيل هذه الدعوة عن طريق الكتابة والمحاضرة ما لم يقد به غيره . وكانت خلاصة رأيه أن الوقاية من المرض العقلى إنما تكون بالعمل على تحقيق الغاية التى نسميها الصحة . وأن الصحة العقلية تعنى النزع الإيجابية إلى أن يعيش المرء فى انسجام مع ما يعرف أنه فى نطاق اختياره وحدود إمكانياته .

ظل أدولف ماير ما يقرب من الخمسين عاماً أقوى الشخصيات وأظهرها فى الطب العقلى بأمريكا وكان له أثر عميق شامل على كل البحوث التى أجريت فى هذا الميدان . فقد كان لا يفتأ يشجع المبتدئين من الباحثين أينما كانوا متى بدا منهم الاهتمام بالمشكلات الحيوية للطب العقلى والإلام بها . لقد كان ماير بحق عميد الطب العقلى فى النصف الأول من القرن العشرين ، على أن زعامته لم تقتصر على هذا الميدان وحده وإنما شملت أيضاً ميادين الطب العقلى الكلينى والبحث العلمى فى ميدان الطب العقلى والصحة العقلية والطب العقلى الاجتماعى ، كما أن آراءه تخللت كل النظريات الحديثة فى الطب العقلى ، وفاق أثره فى تعليم الطب العقلى بأمريكا وفى تنظيم المستشفيات وحركة الصحة العقلية أى أثر آخر .

وثمة جانب آخر كان من مميزات هذه الشخصية العظيمة ذلك هو جانب الإطلاع الشامل العميق ، فإن خير ما فى مساهمة ماير للطب العقلى إنما كان مستمداً من ذهنه المستنير وثقافته الواسعة . وإنه ليعد فى نظر الكثيرين أحد ممثلى عصر عظيم كان يتطلب من الإخصائى العقلى لا معرفة وسائل المعالجة النمطية لمرضى العقل وحسب ، ولكن الإلام أيضاً بتاريخ الطب والعلم والنظريات التى يرفضها

المرء والنسب يرتضيها . وبمجموع التراث الثقافى الذى تمثله الحضارة الراهنة . فإن هذه الحضارة بعينها هى التى يعيش المرء فيها صحيحاً أو عليلًا وذلك وفقاً للتفاعل المتبادل بين شخصيته كلها والعالم الذى يطلب إليه التعامل معه .

وقد قيل أحياناً إن ماير لم يكن مستجاً كما ينبغي لثله فى عالم التأليف العلمى . ولكن يدحض هذا الزعم أن كتابا يحوى اثنين وخمسين مقالا بقلمه فى مختلف موضوعات الطب العقلى نشر منذ عامين . كما أن جامعة جونز هوبكنز بسبيل إعداد كتاب فى أربعة مجلدات يشمل إنتاجه العلمى ، وإذا كان ما يؤخذ عليه أنه لم يضع كتاباً منهجياً منتظماً فى الطب العقلى ، فإن أقوى أثر له إنما كان فى الواقع عن طريق اتصاله المباشر بتلاميذه خلال خمسين عاماً . وقد حظى ماير بأقصى درجات التكريم العلمى فى حياته . فنال درجات فخرية من جامعتي نيل وهارفارد ودعى لرئاسة محاضرات سالمون ومودزلى وانتخب لرئاسة اللجنة الأهلية للصحة العقلية واللجنة العالمية للصحة العقلية والجمعية الأمريكية للطب العصبى والجمعية الأمريكية للطب العقلى وجمعية نيويورك للطب العقلى والجمعية السيکوباتولوجية الأمريكية ، كما منح عضوية فخرية فى جمعيتي واشنطن ونيويورك للتحليل النفسى ، هذا فضلاً عن أستاذية الطب العقلى بجامعة كورنل وجونز هوبكنز .

أما الذين كان لهم حظ العمل معه فإنهم يذكرون حكمته وروحته المرححة ونشاطه الذى لا يفتر وسعة اطلاعه التى تكاد تبلغ حد الظواهر الخارقة ، ومهارته وصبره ورفقه فى العلاج النفسى ومستواه العالى فى البحث العلمى ومواهبه التى لا تبارى فى التدريس ووفاءه كصديق وسخاءه كمضيف لتلاميذه وزملائه وزواره .

لقد خسر العالم العلمى بوفاة أدولف ماير شخصية من أعظم الشخصيات ، ولكن الأساس المكين الذى وضعه مهد للطب العقلى سبيل المضى إلى أمام .

صبرى جرجس